المجلد 01 العدد 01 يونيو 2026
Volume 01 Numéro 01 Juin 2026
ISSN : 3156-9579
مجلة اريكتيس للسوسيولوجية التطبيقية والتنمية
Association Erectus de la Sociologie Appliquée et Développement (ESAD)

Colonial Writing Between Subjectivity and Objectivity:

Henri Georges CONJEAUD Representations of M'DAAKRA Tribe at the Beginning of the 20th Century

Abdellah ANTAR

UNIVERSITY HASSAN II CASABLANCA
Email : antar1990@hotmail.fr

Abstract: Colonial writing shaped an Orientalist stereotype of the Other, portraying him as a mere object devoid of humanity, dignity, and value, one that could be used, exploited, and dominated. He was placed outside Western civilization. The view of the French writer and soldier Henri CONJEAUD was no exception to this context, as he saw that:

«"The M'DAAKRA" were fierce warriors, but they were quick to anger and lacked political sense».

meaning they were incapable of governing themselves, and the colonizer had to come to teach them the art of leadership and administration. Sociology thus became a tool in the service of colonialism at the beginning of 20 Century, framing it as a "civilizing" mission aimed at eliminating resistance, which the colonizers equated with "anarchy," "destruction," and "ruin." It is true that colonial writing was distinguished by field description, precise documentation, and academic specialization. Yet its purpose was to entrench colonialism as a historical reality, while simultaneously pushing the Other to the margins of history — the margins of France / the White Man / the "Civilized." And in those margins, selectivity, racial hierarchy, and tribal stereotyping run rampant.

Keywords: Subjectivity, Objectivity, Representation, Tribe, Colonial Writing, Resistance, Colonialism, Rural Word.

المجلد 01 العدد 01 يونيو 2026
Volume 01 Numéro 01 Juin 2026
ISSN : 3156-9579
مجلة اريكتيس للسوسيولوجية التطبيقية والتنمية
Association Erectus de la Sociologie Appliquée et Développement (ESAD)

الكتابة الاستعمارية بين الذاتية والموضوعية:
تمثلات هنري كونجو لقبيلة المذاكرة في بداية القرن 20م

عبد الله عنتار
جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء
antar1990@hotmail.fr

ملخص: شكلت الكتابة الاستعمارية صورة نمطية استشراقية حول الآخر، أي هذا الأخير مجرد شيء فاقد للإنسانية والكرامة والقيمة، ويجوز استعماله واستغلاله والسيطرة عليه، إنه خارج الحضارة الغربية، ولم تخرج نظرة الكاتب والجندي الفرنسي هنري كونجو عن هذا السياق، إذ كانت ترى:

«أن المذاكرة كانوا محاربين أشداء، لكنهم كانوا سريعي الغضب يفتقدون للحس السياسي»

بمعنى أنهم لم يكن إمكانهم أن يسوسوا أنفسهم، وكان لابد أن يجيء المستعمر ليعلمهم فن القيادة والتسيير، و أضحت السوسيولوجيا أداة في خدمة الاستعمار في بداية القرن 20م، وجعله مهمة "حضارية" تروم القضاء على المقاومة التي كان يعتبرها المستعمرون مرادفة "للفوضى " و "الدمار" و"الخراب". صحيح أن الكتابة الاستعمارية تميزت بالوصف الميداني والتوثيق الدقيق والتخصص الأكاديمي، إلا أن غايتها تكريس الاستعمار كحقيقة تاريخية، وفي الآن نفسه جعل الآخر على هامش التاريخ، أي على هامش فرنسا/الرجل الأبيض/"المتحضر"، وفي هذا الهامش تطفح الانتقائية والتراتبية العرقية والتنميط القبلي.

الكلمات المفتاحية: الذاتية، الموضوعية، التمثل، القبيلة، الكتابة الاستعمارية، المقاومة، الاستعمار، العالم القروي.

مقدمة

تهدف هذه القراءة إلى تفكيك إشكالية الذاتية والموضوعية في الكتابة الاستعمارية، فإذا كانت الذاتية تتمثل في إشراك الذات في الموضوع، فإن الموضوعية تتجلى في فصل الذات عن الموضوع، والمطلع على أغلب الكتابات الاستعمارية التي حررها مؤرخون وعلماء اجتماع وأنثربولوجيون غربيون خلال القرنين 19م و20م سوف يلاحظ أن هؤلاء الباحثين وجدوا أنفسهم عالقين بين انتمائهم الديني والقومي وولائهم لوطنهم من جهة، والتحلي بالموضوعية والواقعية في مقاربة الظاهرة السوسيولوجية والتاريخية من جهة أخرى. وفي سياق القرنين 19م و20م تعرض المغرب كباقي الدول الإفريقية والأسيوية لحملات وضغوط استعمارية فرضتها الثورة الصناعية والرأسمالية التي حتمت على الدول المصنعة البحث عن أسواق لتصريف فائض الإنتاج، فبدأ التنافس بين الدول الغربية حول دول إفريقيا وآسيا ومن ضمنها المغرب الذي تعرض لضغوط استعمارية منذ القرن 15م، إلا أنه حافظ على استقلاله إلى بداية القرن العشرين، بحيث أن هزمه للبرتغاليين سنة 1578م جعل منه محط خوف من قبل الغربيين، ورغم هزيمته في معركة إيسلي أمام الفرنسيين عام 1844م، وأمام الإسبان عام 1859م فقد حافظ المغرب على استقلاله إلى بداية القرن العشرين. وفي ظل تنافس الدول الغربية على الأسواق الإفريقية والأسيوية، احتاجت هذه الدول إلى ترسانة من الباحثين والمختصين في التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع والأنثربولوجيا وغيرها من التخصصات لمعرفة الأوضاع الجغرافية والتاريخية والاجتماعية للمناطق والشعوب التي كانت تنوي هذه الدول استعمارها، ومن ضمن هذه الدول: المغرب، ومنذ أن احتلت فرنسا الجزائر عام 1830م، فقد كانت تبحث عن شتى السبل لاحتلال المغرب ما عدا الحل العسكري الذي كان مكلفا من الناحيتين المادية والمعنوية، إذ لم تقض على ثورة الأمير عبد القادر إلا في سنة 1847م، ولم تبسط سيطرتها على البلاد الجزائرية إلا في سبعينات القرن 19م، ولهذا أرسلت عددا من الباحثين في العلوم الإنسانية، وعلى رأسهم شارل دوفوكو صاحب كتاب: «**التعرف على المغرب 1883-1884**»، وأوغست موليراس صاحب كتاب «**المغرب المجهول**» الذي حرر عام 1895م، ناهيك عن كتاب «**مراكش**» الذي كتبه إدمون دوتي عام 1905م وغيرها من الدراسات الاستعمارية الغربية التي عانت من شرخ الذاتية والموضوعية، إضافة إلى كتاب "حوليات احتلال الشاوية" لهنري كونجو الذي صدر سنة 1938م والذي سوف نشتغل عليه لنقد خلفياته الاستعمارية .

إن قراءتنا لبعض الكتابات الاستعمارية، نروم من خلالها الوصول إلى ثلاثة أهداف:

. إبراز أوجه الذاتية التي اتسمت بها الكتابات الاستعمارية، وبيان خلفيتها الدينية والقومية والوطنية، مع نقدها موضحا دورها السلبي في حجب حقيقة الاستعمار الغربي الذي أهمل واقع الشعوب المستعمرة.

. تبيان دور الكتابات الاستعمارية في توثيق الأحداث والوقائع التاريخية التي لولاها لما عرف المؤرخون شيئا عن تاريخ الشعوب المستعمرة ذات الثقافة الشفهية وخاصة في العالم القروي.

. استثمار الكتابات الاستعمارية لإعادة كتابة تاريخ المغرب بشكل عام، وتاريخ العالم القروي بشكل خاص، مع التحلي بالموضوعية والحيادية في سياق مقاربة تاريخ المغرب المعاصر.

1. إشكالية البحث:

تروم قراءتنا لكتاب "حوليات احتلال الشاوية وما جاورها" للجندي والكاتب الفرنسي هنري كونجو،[1] (كونجو، 2018) فهم واحدة من الكتابات الاستعمارية التي واكبت الاحتلال الفرنسي للمغرب في بداية القرن 20م مبرزا محاسنها ومعايبها، ولا يخفى علينا أن السوسيولوجيا الاستعمارية رغم وقوفها مع الاستعمار الفرنسي وشرعنة ممارساته، إلا أنها تركت أثرا ماديا يعطينا صورة عن فترة من فترات تاريخ المغرب، صحيح أن تلك الصورة مشوهة، لأنها تميل إلى جانب دون آخر، إلا أنها ضرورية لكتابة التاريخ، ولكن على المؤرخ أن يكون حذرا في التعاطي معها، إذ عليه تقليب الصورة التاريخية على وجوهها المختلفة للتحقق من تمام صدقها،[2] وذلك من خلال معرفة الخلفيات التي تحرك الجندي الفرنسي الذي رسم صورة إيجابية حول الغزو الفرنسي، ناهيك عن إشادته بالمتعاونين المغاربة، وشيطنته للمقاومين المغاربة الذين دافعوا عن أرضهم. فما البواعث الذاتية والموضوعية التي تحكمت في الكتابة الاستعمارية من خلال كتاب: «**حوليات احتلال الشاوية وما جاورها**»؟

[1] الاسم الأصلي للكتاب هو "التاريخ العسكري للشاوية منذ 1894" لجندي فرنسي شارك في الغزو الفرنسي لمنطقة الشاوية في بداية القرن العشرين، وقد كان الفرنسيون يسمون عملياتهم العسكرية بالتهدئة التي لم تكن تهدئة بل كانت استعمارا، وكان الجندي كونجو أحد الجنود الذين ساهموا ماديا ومعنويا في تلك العمليات، وحصل على مزرعة بنواحي برشيد لقاء ما بذله من جهد في بسط الفرنسيين لسلطتهم على الشاوية، وبعد هذا الكتاب شهادة تاريخية على شجاعة قبائل الشاوية في الدفاع عن أرضهم من جهة ومدى جور المستعمر الفرنسي من جهة أخرى.

[2] إننا نرمي من خلال دراستنا النقدية هذه تقليب المعرفة التاريخية على وجوهها المختلفة للتحقق من تمام صدقها على غرار سؤال النقد الذي اتسم به الفكر الأوروبي الحديث الذي نزع السلطة من الإقطاع والكنيسة، بحيث نهدف إلى فك الارتباط بين السلطة والكتابة، فالمهمشون هم الآخرون يمكنهم كتابة تاريخهم استنادا على العقل باعتباره أعدل قسمة بين الناس، ويقول طه عبد الرحمان: «وأما السؤال الفلسفي الأوروبي الحديث، فهو عبارة عن نقد، ومقتضى النقد هو ألا يسلم الناظر بأية قضية. كائنة ما كانت. حتى يقلبها على وجوهها المختلفة ويتحقق من تمام صدقها، متوسلا في ذلك بمعايير العقل»، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 2012، ص 14.

2. فرضيات البحث

يقول الباحث السوسيولوجي عبد الغني شفيق:

«إن العلوم الإنسانية في عمومها ظلت حريصة على المنهج لدرجة يبدو فيه هذا الأخير كما لو كان غاية في ذاته» (أحجيج ومجموعته، 2022، 96).

لقد أصاب هذا الباحث حينما قال بأن العلوم الإنسانية لم تركز جهدها على المحتوى المعرفي، بل ركزت على المنهج، ولذلك بقيت فقيرة معرفيا، ويبقى السؤال: هل يمكن بناء معرفة تاريخية وسوسيولوجية بالمغرب المعاصر بدون تراكم معرفي؟ وهل بمستطاعنا كتابة تاريخ جهوي بدون رصيد علمي؟ ماذا لو غابت الكتابات الاستعمارية أكان بمستطاعنا كتابة شيء حول الشاوية على سبيل المثال؟ والجواب: لا سبيل سوى الكتابة الاستعمارية التي ينبغي أن نكون حريصين مع المعطيات التي تقدمها، وذلك بالنظر إلى التداخل الحاصل بين الذاتية والموضوعية، وفي هذا الإطار سوف نعطي لمحة حول بعض الكتابات الاستعمارية التي تطرقت إلى المغرب مبرزا بعض القضايا التي أثارتها هذه الكتابات:

1. يدخل كتاب السوسيولوجي الفرنسي شارل دوفوكو "**التعرف على المغرب 1883-1884**" ضمن الكتابات الاستعمارية التي اشتغلت على المغرب، فالكتاب عبارة عن رحلات قام بها دو فوكو عبر التراب المغربي للتعرف على المجال والإنسان، واستغرقت رحلته قرابة السنتين جاب فيها عددا من المناطق وزار جملة من القبائل متنكرا في زي رجل يهودي وحاملا معه مذكرة وقلما وبعض المعدات الجغرافية، ويقول المؤرخ المغربي محمد حجي في الصفحتين الخامسة والسادسة من مقدمة الترجمة العربية لكتاب فوكو المذكور:

«إنه موضوعي ودقيق في ملاحظاته الجغرافية، وفي معظم إشاراته التاريخية إلا عندما تجمح به خلفياته الاستعمارية فلا يسلم من لمزاته القدحية حكام ولا محكومون» (دو فوكو، 1999، 6.5).

فكيف زاوج دو فوكو بين الذاتية و الموضوعية ؟ إنه من الناحية الجغرافية وصف الغطاء النباتي ومجاري المياه و التضاريس بدقة كبيرة، ناهيك عن أنشطة المغاربة الزراعية والرعوية وعاداتهم ولباسهم وفنونهم ومعتقداتهم ببراعة عظيمة، بيد أن خلفيته الاستعمارية بقيت حاضرة بين الفينة والأخرى خلال مسار البحث الذي قام به خصوصا في قضايا المجتمع والتاريخ، وتنقشع هذه الخلفية في الاقتباس التالي الذي تطرق فيه إلى قبائل غياثة بمنطقة تازة :

« إنه من الصعب التعبير عن الخوف الذي يعيش فيه سكان هذه المدينة من جراء تصرفات أفراد قبيلة غياثة، لذلك لا يحلم سكان إلا بشيء واحد، ألا وهو قدوم الفرنسيين» (دو فوكو، 1999، 55.44)

فهل فعلا حلول الفرنسيين بتازة سيحل مشكل غياب الأمن بمدينة تازة أم أن الأمر هو جموح خيال كما يقول المؤرخ محمد حجي ؟ وهل المدن التونسية والجزائرية في ذلك الوقت كانت تحظى بالسلم والأمان؟ ويقول دو فوكو عن المغاربة:

«**المغاربة سريعو إراقة الدماء، ولا يعيرون أي اعتبار لحياة الآخرين: لم أر شخصيا تصرفات قاسية ارتكبوها ولم أسمع من أفواههم حديثا عن قسوة صدرت من طرفهم**» (دوفوكو، 1998، 181-182).

يطلق دو فوكو حكما قاسيا على المغاربة ويعتبرهم مريقي الدماء، إنه لا ينطلق من حكم الواقع، بل ينطلق من حكم القيمة لتبرير التدخل الفرنسي في المغرب، كأن العنف حالة مغربية وليس حالة كونية تسري على كل البشر، غير أن دوفوكو في الجزء الثاني من القول يعترف بأنه لم يرى مغاربة ارتكبوا العنف ضد الآخرين، ولم يسمع شيئا من حديثهم عن العنف، فكيف شيد حكمه يا ترى؟ نستمع إلى فوكو يقرع فوكو آخر في النص كأن الذاتية والموضوعية تتصارع في كتاب "**التعرف على المغرب "1884.1883**":

«**لا يمكن لامرئ مثلي، قضى فقط سنة واحدة في هذا البلد أن يدعي التوفر على مثل هذا الحق. لذا قلن أتطرق بتاتا في القول من هم المغاربة وما ليسوا عليه وسأكتفي بالإشارة إلى بعض الصفات المنفردة التي أثارت انتباهي والتي وجدتها في الكثير من الأماكن أو لاحظتها عند بعض المجموعات**»(دو فوكو، 1999، 180).

يقر دو فوكو أنه من الصعب معرفة المغاربة، فسنة واحدة لا تكفي للتعرف على أفكارهم ومعتقداتهم وميولهم وممارساتهم، ولذلك تبقى معرفة المغاربة معرفة مبتورة باعتراف دوفوكو نفسه، وبالتالي لم يستطع دوفوكو أن يتحرر من إسار الذاتية، بالنظر إلى السياق التاريخي الذي عاش فيه والمحكوم بالأطماع الغربية في إفريقيا وآسيا.

2.إذا كان شارل دوفوكو مجرد رحالة جمع بعض المعطيات حول المغرب، فإن أوغسطين ليون كيوم بدأ حياته في المغرب كرجل استعلامات في العقد الثاني من القرن العشرين مشاركا في الحملات العسكرية الفرنسية على الأطلس إلى حدود عام 1933م، وأنهاها كمقيم عام بالمغرب في الفترة الممتدة بين عامي 1951م و1954م، وقد ألف كتابا هاما عنوانه: «**البربر المغاربة وتهدئة الأطلس المركزي (1912-1933)**»، وسوف يمكننا هذا الكتاب من فهم العقلية الاستعمارية التي تعاملت باحتقار مع السكان المحليين مستبعدة مبدأ الموضوعية كأن الآخرين لا حق لهم في الوجود، ويقول في هذا الإطار:

«**لقد غزت فرنسا البلاد بصمت، مستعملة كنوزا من البطولة وأكثر من ذلك التواضع والحكمة**» (كيوم، 2016، 25).

هل فعلت غزت فرنسا المغرب بصمت كما يدعي غيوم؟ وهل يلتقي الغزو والصمت في آن واحد؟ كيف يجتمعان ؟ وهل فرنسا جاءت من أجل نزهة في المغرب؟ ولئن كان الأمر كذلك فلماذا استمر ت حملاتها العسكرية على المغرب قرابة 26 سنة من 1907م إلى 1933م؟ ماذا يقول عن معركة لقصيبة في العام 1913م ومعركة لهري في العام 1914م؟ ومعركة بوكافر في العام 1933م؟ يعتبر أوغسطين كيوم ليون أن الفرنسيين الذين شاركوا في الحملة الفرنسية على الأطلس أبطالا،

فهل معنى ذلك أن المقاومين المغاربة كانوا جبناء؟ وهل من ينتصر في المعارك الثلاث المذكورة آنفا يصنف بطلا؟ إن الكتابة الاستعمارية انطلاقا كتاب كيوم لم تتصف بقدر من الموضوعية إلى حد أنها استبعدت أي دور للمقاومين المغاربة في الأطلس كأن هذه الربوع استقبلت الفرنسيين بالورود، والحال أن أهلها دافعوا عن أرضهم بإمكانياتهم المتواضعة إلى آخر رمق، بينما قيم التواضع والحكمة ألصقها أوغسطين كيوم ليون بالفرنسيين في إقصاء سافر للمقاومين المغاربة من التاريخ، كأن التاريخ وضع للأقوياء دون الضعفاء .

3. محاور البحث:

يتوخى هذا البحث الإجابة عن الأسئلة التالية:

.كيف تمثل هنري كونجو مجال قبيلة المذاكرة خلال الغزو الفرنسي للشاوية؟

.كيف تمثل نفسه وتمثل الفرنسيين الذي شاركوا معه في الحملة الفرنسية على الشاوية؟ وكيف تمثل قبائل المذاكرة؟

.هل تحلى بقدر من الموضوعية؟

يقول عالم الاجتماع المغربي عبد الغني منديب عن مفهوم التمثلات:

«ونعني بالتمثلات هنا مجموع المعتقدات والتصورات والإدراكات والمو اقف تجاه الطبيعة والمجتمع التي تنتظم في تشكيلها لدلالات منطقية يسميها فيبر بالنظرة إلى الكون.وتتم صياغة هذه التمثلات المشكلة للنظرة إلى الكون انطلاقا من فهم رمزي غير ممنهج نابع من الحس المشترك اليومي الذي يدرك به الناس الكيفية التي يوجد عليها عالمهم الاجتماعي» (منديب، 2006، 8).

سنحاول في هذا المقام أن نعرف ثلاث نقط أساسية:

.النقطة الأولى تتمثل في نظرة هنري كونجو إلى مجال المذاكرة أو إلى الأرض التي يتحيزون عليها.

.النقطة الثانية تتجلى في نظرة هنري كونجو إلى سكان قبيلة المذاكرة في بداية القرن العشرين.

.النقطة الثالثة تكمن في الرموز والأوصاف والنعوت التي استخدمها في وصف مقاومي قبيلة المذاكرة

4. المنهجية المعتمدة:

إن المنهجية التي سنعتمد عليها ترتكز على تحليل المحتوى، ومقارنة هذا التحليل بدراسات أخرى قاربت الظاهرة الاستعمارية. وذلك من أجل غربلة الكتابة الاستعمارية والتمييز بين ما هو ذاتي فيها وما هو موضوعي، وذلك من أجل المساهمة في إعادة كتابة التاريخ الجهوي لمنطقة الشاوية.

ولئن كان تحليل المحتوى هو منهج بحث علمي يعنى بدراسة المضمون الصريح والضمني للنص في بعده المكتوب والمسموع والمرئي، فإن وظيفته الأساسية تكمن في تحويل النص من مادة خام إلى بيانات قابلة للتفسير والتأويل، والهدف من ذلك الكشف عن اتجاهات الكاتب وأيديولوجيته، ناهيك عن الصور النمطية التي يروج لها، والعلاقات السلطوية المتضمنة في الخطاب، كما هو الشأن في دراسة الكتابة الاستعمارية.

وفي هذا السياق قمنا بتحليل نص هنري كونجو بوصفه خطابا استعماريا لم يخلو من الأيديولوجيا، وإن تلبس بلباس الموضوعية والعلمية والحياد.

لكن كيف تم تنزيل وتطبيق هذه المنهجية؟ لقد تم تطبيقها في خمسة مستويات:

.المستوى الأول: تحديد وحدات التحليل وفئاته

قمنا بتحليل النص إلى وحدات قابلة للدراسة (الكلمة، الجملة، الفقرة...)، والغاية من ذلك المقارنة والتمييز بين الصفات التي نسبها هنري كونجو إلى المذاكرة والنعوت التي كان ينسبها إلى الفرنسيين، لأن الخطاب الاستعماري لم يكن يخلو من نزعة عرقية أو إثنية، إضافة إلى التمييز بين الأفعال، فالباحث لم يكن يتورع في اعتبار الاستعمار الفرنسي حاملا لأفعال حضارية، بينما كان يعتبر مقاومة المذاكرة بأنها كانت أفعال سلبية تشوبها الهمجية والتخلف، دون أن ننسى صمت الكاتب أو الباحث عن عنف المستعمر ودمويته، ناهيك عن التشنيع بأعمال المقاومة، وبالتالي كان يتموقع الكاتب إلى جانب السردية الاستعمارية، وكان يرى المقاومين كآخرين بينهم وبينه هوة عميقة.

المستوى الثاني: الكشف عن الثنائيات الضدية:

يركز تحليلنا على الثنائيات التي يقيمها النص الاستعماري لتبرير العلاقة غير المتكافئة:

متحضر/متوحش

عقلاني/عاطفي

فاعل/مفعول به

معلم/متعلم

البطولة/الجبن

الصلابة/الضعف

ومن هنا يظهر كيف يختزل الآخر في خانة السلب، وتمنح الذات الاستعمارية صفات الإيجاب والقيادة .

المستوى الثالث: نقد ادعاء الموضوعية

عملنا في هذا الجانب على دراسة الآليات اللغوية التي كان يخفي بها هنري كونجو ذاتيته، إنه لم يكن يتورع في استعمال ضمير الغائب لتقديم رأيه بوصفه حقيقة علمية، مع الإشارة إلى غياب صوت الآخر ويتعلق الأمر بصوت المقاومين من قبيلة المذاكرة كأنهم أشياء أو أدوات لا كائنات حية وواعية لها الحق في الوجود والكرامة والمقاومة، وبالتالي اختار هنري كونجو كلمات ذات حمولة تقويمية وتبخيسية من قبيل: الذعر، الملاحقة، العدو....

المستوى الرابع: قراءة الصمت وما لم يقل

في خضم استعمالنا لتحليل المحتوى، لم نكتف بالإشارة إلى ما هو مذكور، بل أولينا اهتماما لما أغفل عمدا مثل الصمت عن نوايا المستعمر الفرنسي ورغبته في نهب خيرات المغرب عموما وقبيلة المذاكرة على وجه الخصوص، ثم السكوت عن جرائم هذا المستعمر، وشرعنة أعماله، ناهيك عن نزع الشرعية عن أفعال المقاومة، دون أن ننسى تناقضات "المهمة الحضارية"، فكيف لمن يدعي الحضارة (الحرية، العدالة، الأخوة) أن يسفك دماء الآخرين؟

المستوى الخامس: ربط النص بسياقه السلطوي

في هذا المستوى أخرجنا التحليل من حدود النص إلى سياق إنتاجه، إنه يعكس تقريرا إداريا فرنسيا باردا عن قبيلة المذاكرة وباقي قبائل الشاوية، ولم نقم بقراءته باعتباره وصفا موضوعيا ، بل اعتباره أداة في خدمة الاستعمار الفرنسي في بداية القرن العشرين، وكان يهدف إلى تحقيق مشروع "التهدئة" ووأد مشروع المقاومة الذي كانت قد باشرته القبائل في مناطق متفرقة من المغرب.

5.أرض المذاكرة : بين غنى المجال وصعوبة التضاريس وطقس غير مستقر

ماذا نقصد بالأرض يا ترى؟[3] نقصد بالأرض المجال الذي كانت تتحيز فيه ساكنة المذاكرة خلال بداية القرن 20م، ويمتد هذا المجال من واد النفيفيخ شمالا إلى وادي المالح جنوبا، إنه جزء من بلاد تامسنا أي بلاد المنبسطات، وبالنظر إلى

[3]بخصوص المجال، لم تعرف القبائل نهائيا أي استقرار ثابت في المجال بالنظر إلى الصراع القائم مع القبائل الأخرى حول الماء والكلأ والسلطة والنفوذ، ولئن تحدثنا عن المذاكرة، فإن استقرارها بين وادي النفيفيخ شمالا ووادي المالح جنوبا يبقى استقرارا حديثا، ويقول الأستاذ المؤرخ نور الدين فردي:

المجلد 01 العدد 01 يونيو 2026
Volume 01 Numéro 01 Juin 2026
ISSN : 3156-9579
مجلة اريكتيس للسوسيولوجية التطبيقية والتنمية
Association Erectus de la Sociologie Appliquée et Développement (ESAD)

موقعها الجغرافي المتاخم للمحيط الأطلسي (إلى جانب كل قبائل الشاوية)، وجودة تربتها وغنى غطائها النباتي وتنوع تضاريسها التي تجمع بين الانبساط تارة والارتفاع تارة أخرى، فإنها كانت محط أطماع القوى الاستعمارية، ولقد مثلت منطقة المذاكرة (وهي جزء من الشاوية) بالنسبة للاستعمار الفرنسي المدخل الرئيسي لاحتلال المغرب إلى جانب المنطقة الشرقية المتاخمة للحدود الجزائرية، ولذلك سنحاول في هذا المقام أن نستعرض تمثلات هنري كونجو لأرض المذاكرة التي وطأها منذ سنة 1908 وخصوصا المناطق الداخلية للشاوية التي تتميز بالنشاط الزراعي وكثافة الغطاء النباتي، ويقول في الصفحة 74 من الكتاب:

«قرر الجنرال أن يزحف على أكثر خصومنا معاندة وهم المداكرا. غادر رتل الساحل الدار البيضاء في 21 يناير 1908م، ونصب خيامه في المساء بافضالة، ليقضي الليل في الغد في بوزنيقة. وفي الثالث والعشرين، رافقته إلى سيدي بن سليمان، مجموعة الخروج التابعة لبوزنيقة، ليتجه إلى الجنوب، مخترقا تراب ازيايدا، الذين بسبب الخوف أو عدائهم لنا غادروا أراضيهم، ولجؤوا إلى ساحة وسط الغابة، بعين اكريفل. تمت المسيرة دون طارئ، وفي المساء، نصب الرتل خيامه ببئرربراح، على جانب واد انفيفيخ» (كونجو، 2018، 74).

إن المجال الذي يتحدث عنه هنري كونجو في هذا المقام هو مجال بنسليمان الذي يقع في الجزء الشمالي من الشاوية، وهناك كانت تتحيز قبيلة الزيايدة التي كانت ومازالت تحاذيها جنوبا قبيلة المذاكرة، ويتميز هذا المجال بانتشار الغابات ولاسيما غابة الفلين التي هي امتداد لغابات المعمورة، وحسب كونجو مثلت الغابة مجالا للاحتماء بالنسبة لساكنة الزيايدة سواء خلال لحظة مواجهة الفرنسيين أو خلال لحظة الاستسلام، فأثناء مرور قوافل وأرتال الفرنسيين في 23 من يناير عام 1908م لم يكن أمام ساكنة الزيايدة سوى ترك أراضيهم الزراعية ومنازلهم والتوجه إلى الغابة،[4] إلا أن كونجو بقي حائرا مترددا لم يعرف السبب الذي جعل هؤلاء السكان يتركون مورد رزقهم الذي هو الأرض والتوجه إلى الغابة، بحيث لم يعرف هل هم أعداء للفرنسيين أو خائفون منهم؟ يتضح أن المجال لعب لصالح قبائل الشاوية في تعطيل الاحتلال الفرنسي

«كانت قبيلة المذاكرة وأولاد علي تنتمي في السابق إلى مجموعة بوعطية وكانت تستوطن منذ 110 سنة تقريبا مكارطو وزيو وجزءا من أراضي قبيلة مزاب الحالية، وخلال حرب بين قبائل أولاد بورزك وأولاد بوعطية استعان المذاكرة بمزاب، لكن هذا التحالف أضر بالمذاكرة، فقد انهزمت مزاب المستقرة شرق المنطقة أمام أهل تادلة وهاجمت المذاكرة التي تراجعت لتتوجه غرب مكارطو حيث طردت بدورها الزيايدة وأولاد زيان المنتميتان لمجموعة الشهاونة»، أنظر مساهمة نور الدين فردي في الكتاب الجماعي: المذاكرة والتصدي الشعبي للاستعمار الفرنسي، سلسلة دفاتر الشاوية، منشورات مؤسسة تامسنا للدراسات والأبحاث حول الشاوية، ط1، 2001، ص 26.

[4] حين بسط الفرنسيون سلطتهم على منطقة بنسليمان، سوف يشكلون مخيما اسمه بولو أو بولهو الذي سوف يشكل النواة الأولى للمدينة التي كان يسميها السكان المحليون بالقشلة، ويقول كونجو في الصفحة 132عن مخيم بولهو: «استطاع معسكر "بولهوت" بفضل قربه من الغابة، وحدق حاميته أن يجد مأوى لمجموعة ازيايدة الجهوية، تحت أكواخ واسعة ومريحة مصنوعة من الخشب ومن الطين الممزوج بالقش».

لمنطقة الشاوية، [5] بل كان عنصرا من عناصر خوفهم، ويشرح في هذا الصدد كيف أن المجال المذكوري شكل عنصرا مساعدا لقبائل المذاكرة في دحر الفرنسيين:

« **كانت كبرياؤهم تزداد يوما عن يوم، ظنا منهم أن قيمتهم الحربية وبلادهم الجبلية (التي في الحقيقة) لا يستهان بها**»، (كونجو، 2018، 88).

واللافت من خلال هذا الكلام أن المجال المذكوري أن الفرنسيين في بداية القرن العشرين كانوا يتمثلون المذاكرة كقبيلة ذات كبرياء وأنفة وعزة، وتستلهم ذلك من تضاريسهم الوعرة المرتفعة التي تضارع السماء، ورغم وعورة التضاريس، فإن كونجو حكايته يوضح قائلا بأن الفرنسيين حين عبروا أرض بنسليمان، زادت أطماعهم في المجال الشاوي بشكل عام وفي المجال المذكوري بشكل خاص ولاسيما عندما توقفوا قرب عدد من العيون والمجاري المائية برهة من الزمن مثل عين اكريفل ووادي النفيفيخ وعين الزميت وغيرها، لأنها شكلت زادا بالنسبة لهم، سرعان ما واصلوا سيرهم من أجل التغلغل عميقا في الشاوية وفي المناطق الداخلية للبلاد، ومن الملفت أن كونجو بالرغم من مواقفه الاستعمارية المتحاملة، إلا أنه وصف بدقة وأمانة الأماكن والمواقع بمنطقة الشاوية حتى أسماء العيون والأودية كما هو الحال لعين اكريفل وبئر الرباح ووادي النفيفيخ الذي يعبر تراب الزيايدة، [6] ولذلك تتسم أرض الشاوية بغنى الموارد المائية وقد حاول الفرنسيون الاستيلاء على هذه الموارد لبسط سيطرتهم على المنطقة، أما بالنسبة لحالة الطقس بالمجال المذكوري، فقد شكلت عنصرا معرقلا للاحتلال الفرنسي ، ويقول في الصفحة 86 من كتابه المذكور:

« **في الأول من مارس، استيقظ الجنود على مطر غزير. نظرا لسوء الطقس، وطبيعة الأرض، تخلى الجنرال مرة أخرى على ملاحقة المذاكرا بعيدا. قرر التوجه شرقا نحو ازايدا الذين ظلوا متمردين دائما**»،. (كونجو، 2018، 86).

[5] شكل المجال عنصرا معرقلا للفرنسيين حين زحفهم على الشاوية، ويقول كونجو في الصفحة 69 عن المجال الحريزي : «تم الزحف نحو برشيد دون أي حادث يذكر، لكن الجند تعبوا، لأن وحل الأرض اللصوق، جعل المسالك وعرة».

[6] من الأمور التي تحسب للفرنسيين هي أنهم كانوا يدونون ويسجلون، كما اتسموا بروح البحث، وبالتالي فكتابة التاريخ الجهوي للشاوية لا يمكن أن يتحقق دون العودة إلى الكتابات الاستعمارية، يقول كونجو عن جغرافيا الشاوية في الصفحة 128 من كتابه: «تم تجوال استكشافي بالكامل في كل من: غابة بني اورا وحدود غابة ازعير والأودية العليا لواد داليا وروافده. وذهبت مجموعة من "بولهوت" تحت إمرة النقيب "نانسي" حتى سيدي مخفي، على واد بوركراك. وزار النقيب "افوانو" منابع واد لعطش، وصخرة ادجاجة، القاعدة السلطانية القديمة وجبال عشاش.».

أنظر أيضا:

Mission scientifique du Maroc. Villes et Tribus Du Maroc : Casablanca et les CHÂOUÏA, Tome II. Paris : Ernest Leroux, 1915, p 48.

وهكذا يتبين من خلال هذا القول أن قبيلتي المذاكرة و الزيايدة على غرار باقي قبائل الشاوية واجهت الفرنسيين باعتراف كونجو نفسه، لكن ما ساعدهما على ذلك طبيعة الأرض التي لا تعرف طقسا مستقرا، بل تعرف طقسا متغيرا، بحيث أن هطول المطر لا يعرف انتظاما، بيد أن كونجو يبين أن وسط وجنوب الشاوية يتميزان بالنشاط الزراعي وهذا الأمر يوحي بخصوبة التربة وغناها، إلا أن الحقول المزروعة شكلت عراقيل أمام الجنود الفرنسيين سواء خلال مواجهة المذاكرة وأولاد حريز أو خلال مواجهة أولاد البوزيري. ومنه فقد وقفت تربة الشاوية مانعا أمام الأرتال الفرنسية، لأنها كانت زالقة ومتعبة ومرهقة لها، كما كانت مليئة بالمستنقعات وهذا ما عطل المحاولات الفرنسية الرامية إلى احتلال الشاوية في أسرع وقت ممكن، واللافت حسب كونجو أن المنطقتين سواء منطقة سطات أو منطقة زاوية سيدي المكي كانتا تعرفان نزول الضباب مع بداية الليل، الشيء الذي ضاعف من معاناة الفرنسيين خلال غزوهم لقبائل الشاوية، وفي شرق هذه المنطقة الجبلية كان يتحصن سكان المذاكرة، وقد أثارت جبالهم رعب الفرنسيين، ويسرد كونجو تجربته الحربية في هذا المكان قائلا:

«في الثامن من مارس عام 1908م، على الساعة السابعة صباحا، دخل الجنرال وجنوده تراب المداكرا، مهاجما إياهم، داخل ديارهم، هؤلاء الناس، الذين لا يقهرون، والذين بفضل ظروف شتى: منها غياب التموين خلال الأيام ما بعد 24 يناير، وكذلك تشتت الرتل، بعد معارك 16.17.18 فبراير، ورداءة الجو ، أثناء الأيام ما بعد 29 فبراير، بسبب هذه الظروف قلت: لم يكابدوا بعد ثقل سلاحنا، فكانت كبرياءهم تزداد يوما عن يوم، ظنا منهم أن قيمتهم الحربية وبلادهم الجبلية. التي هي في الحقيقة لا يستهان بها. تخيفنا» (كونجو، 2018، 88).

يقر كونجو بأن المذاكرة لم يكونوا يقهرون بالنظر إلى صلابتهم ووعورة تضاريسهم، بحيث تحصنوا بأعالي هضبة بنسليمان التي هي جزء من الهضبة الوسطى، لقد ولدت هذه التضاريس المرتفعة الكبرياء لدى المذاكرة حتى باتوا لا يستهان بهم من وجهة نظر كونجو الذي خاض حربا ضروسا ضدهم ، ورغم اعترافه بغياب التموين وتشتت الرتل ورداءة الجو ، فإن كونجو يقر بنوع من الحيادية أن أرض المذاكرة كانت أرضا للبطولة لا الجبن والخوف، بحيث واجهوا الموت سعيا إلى الحياة، وفي هذا الصدد يقول كونجو عن معارك المذاكرة على ضفاف وادي زمران:

«وصلت قواتنا لواد زمران[7] (...) كان الصخب مخيفا، وكانت المذبحة فظيعة. لم يعد مقاتلو المداكرا، بعدما أصبحوا مذعورين، يدافعون على أنفسهم تقريبا، وحدهم بعض المستبسلين استمروا في القتال» (كونجو، 2018، 89.88).

إن روح الشجاعة المستلهمة من عظمة الجبال وسفوح الأودية لم تثن سكان المذاكرة عن التصدي للفرنسيين في أعالي واد زمران رغم تفوق الغزاة تنظيما وعتادا، واستمر النزال بينهم على هضبة ابريغيت التي تقع بين وادي العطش والدالية [8] في أعالي هضبة بنسليمان، ويقول كونجو عن وعورة التضاريس بهذه الأرض:

« في الحادي عشر من ماي، على الساعة الثالثة صباحا، غادر الجنرال القاعدة مع جميع قواته, كان يريد الاستحواذ على معسكرات العدو، التي علم أنها موجودة فوق هضبة ابريغيت، تم السير عبر مسلكين متوازيين، يبعد الواحد عن الآخر بكيلومترين تقريبا. شجع الضباب الاقتراب منها، إلا أن الأرض التي كانت غير مسطحة، جعل الربط والتواصل صعبين وبطيئين» (كونجو، 2018، 109).

تتحيز هضبة ابريغيت على أعلى هضاب إقليم بنسليمان، وعلى مقربة منها يجري وادي العطش إلى جانب وادي الدالية، ولقد حيرت هذه الهضبة الضباط الفرنسيين، بالنظر إلى أن الأرض غير مسطحة، ناهيك عن الضباب الذي ينتشر بكثافة على ضفاف وادي العطش والدالية، وعلى سفوح هذين الواديين تحصن سكان المذاكرة من أجل صد الفرنسيين، واعتبرهم كونجو أعداء لا لشيء إلا لأنهم كانوا يدافعون عن منطقتهم ورفضوا الإذعان للمحتلين، وبالتالي شكلت الأرض

[7] ينبع وادي زمران من أعالي الهضبة الوسطى، ويخترق قبائل بني خيران مارا من قبائل أولاد امحمد، وحينما يلتقي بوادي العطش القادم من منطقة الخطوات ووادي بوعسيلة الآتي من مكارطو يتشكل وادي المالح، وقبل أن يصب في هذا الأخير في المحيط الأطلنتي يلتقي بمنطقة الشلالات بوادي حصار الذي يخترق قرية سيدي حجاج بمنطقة مديونة ماضيا نحو لقاء وادي المالح .

[8] يسمى حاليا بوادي النفيفيخ بدءا من وصوله إلى الثلاثاء الزيايدة، لكن في أعاليه وبالضبط في نواحي بئر النصر (جزء من الهضبة الزعرية) يسمى بوادي الدالية، أما في القرن 16 فكان يسمى بوادي كير.

أنظر: مارمول كاربخال، إفريقيا، الجزء الثاني. ت محمد حجي. محمد زنيبر. محمد الأخضر. أحمد التوفيق. أحمد بنجلون. الرباط: دار نشر المعرفة، 1988. 1989، ص 128.

وفي القرن الثاني الميلادي كان المؤرخ بطليموس يسميه بوادي ديوس، بينما وادي المالح كان يسميه بوادي كوزا.

أنظر:

حسن أميلي وأحمد سراج. فضالة أو عودة الذاكرة. المحمدية: جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مركز الدراسات والبحوث التاريخية والأثرية، 2000، ص 32.

عنصرا مساعدا للمقاومة التي خاضها أهل المذاكرة، والأدهى من ذلك عرفوا كيف يختارون المواقع لتأخير وإرهاق الغزاة الفرنسيين الذين يسارعون الخطى لاحتلال المنطقة وقطع الطريق أمام الدول المناهضة لهم..

على سبيل الاستنتاج: يتضح من خلال ما سبق أن المجال المذكوري شكل محط أطماع الفرنسيين خلال بداية القرن العشرين نظرا لخصوبة التربة وانبساط الأرض ووفرة العيون والوديان والآبار، بيد أن الوحل ووجود بعض المرتفعات وعدم انتظام الطقس على طول السنة ساهم في الحيلولة دون تقدم الفرنسيين،[9] والأدهى من ذلك أن هذه المعطيات لعبت لصالح المقاومة المذكورية التي انتصرت في عدد من المعارك مثل معركة بير الرباح والفخفاخة وغيرهما من المعارك.

6. الإنسان المذكوري: بين روح المقاومة والنظرة الدونية للفرنسيين.

لم يتورع هنري كونجو في و صف المغاربة بالحاقدين والدهماء والرعاع من جهة، والاعتراف بشجاعتهم ومقاومتهم وبسالتهم من جهة أخرى، وفي هذا الإطار وصف كونجو رجال الهيبة[10] المقاومين الذين اقتربوا من الشاوية لمؤازرة مقاومتها في بداية القرن العشرين بالحاقدين:

« **بعد وقت قليل، تميز الشيخ ماء العينين ورجاله الزرق، الذين كانوا يمرون بالمنطقة، تميزوا بإظهار حقدهم إزاء المسيحيين والفرنسيين** »، (كونجو، 2018، 28).

يصف كونجو مقاومي أحمد الهيبة الذين قدموا من الصحراء المغربية إلى الشاوية لمؤازرة المقاومة الشاوية بالحاقدين، دون أن يوضح سبب حقدهم على الفرنسيين والمسيحيين. لقد تجاهل كونجو أن الفرنسيين في بداية القرن العشرين

[9] يكتب كونجو في الصفحة 74 عن العوائق المجالية التي واجهت الفرنسيين أثناء زحفهم على المذاكرة في بداية القرن العشرين، ولاسيما الوحل: « في الرابع والعشرين من يناير، استؤنف الزحف نحو الجنوب، وما فتئ أن سمعت طلقات مدفعية "رتل الرماة". كان لهذا الأخير موعد "بعين مكون"، على ضفاف واد المالح قصد الاندماج "برتل الساحل". كان هذا الرتل قد انطلق من مديونة في الثالث والعشرين، وجاء لينصب خيامه على ضفاف واد المالح، قرب سيدي أحمد المجدوب، بعد مسيرة مضنية فوق أراض التيرس المحروثة».

[10] يبدو أن بعض الكتابات الاستعمارية تحمل نظرة استعلائية ضد كل من يرفض الاحتلال الفرنسي، فالمقاوم أحمد الهيبة بن الشيخ ماء العينين على سبيل المثال الذي قدم سنة 1910 م من منطقة السمارة بالجنوب المغربي، و هب نحو أبي الجعد لكسب الشرعية من الزاوية الشرقية ورفض اتفاقية الحماية وحشد همم الناس من أجل المقاومة، قوبل بنظرة دونية من قبل الكتاب الفرنسيين ، ويقول الصحفي كريستيان أوبل في هذا الصدد: «ووصلنا إلى تادلة للقبض على المشاغب ماء العينين »، مغامراتي المغربية: في قلب أحداث بداية القرن العشرين، ت أحمد لقهمري، إفريقيا الشرق، ط1، 2020، ص 114. فهل من يدافع عن بلاده يسمى مشاغبا؟ يتضح من خلال هذا القول النظرة المتحاملة للكتابات الاستعمارية حول التاريخ المغربي والمتشبعة بالمواقف الإيديولوجية، أما كونجو نفسه، فقال عنه في الصفحة 146: « في يونيو 1910 أراد المحرض والمتعصب ماء العينين، وهو ولي، له صيت بالصحراء، أن يتوجه من مراكش إلى فاس مرورا بمنطقة تادلة. خوفا من تأثير دعاية هذا الخصم اللدود، أعطى الجنرال "موانيي" الأوامر الضرورية بتوقيفه في الطريق».

ولجوا أرضا ليست أرضهم، كما تغافل أن مواطنيه كانوا يحملون السلاح لغزو الشاوية، وذلك يعد خيانة لقيم التنوير التي نادت بها الثورة الفرنسية في أواخر القرن التاسع عشر وعلى رأسها الحرية والمساواة،[11] لقد تجاهل كونجو هذه القيم وهو يشارك كجندي تجند لبسط النفوذ الفرنسي بالمغرب مستبعدا كونية قيم التنوير وسريانها على جميع البشر مهما كانت أديانهم وألوانهم وأعراقهم، وبالتالي يتضح أن العقيدة العسكرية الفرنسية انحرفت عن قيم الثورة الفرنسية، ويتجلى هذا الانحراف في وصف قبائل الدار البيضاء والشاوية بالدهماء:

«**اكتسحت دهماء القبائل المجاورة جميع أزقة المدينة، دون أن تواجه أي اعتراض من لدن الباشا**» (كونجو، 2018، 31).

من هم الدهماء يا ترى؟ يقول الفيلسوف أحمد ابن مسكويه (توفي سنة 421 ه) أن الدهماء:

«**هم الجمهور من العامة الرعاع، وجهال الناس السقاط**»،[12] (بن مسكويه، بدون تاريخ، 49).

ولئن كان الدهماء هم العامة الرعاع، فمن هم الخاصة في نظر كونجو؟ إنهم الغزاة الفرنسيون الذين أتوا لاحتلال الشاوية، ولذلك كان ينظر كونجو إلى الشاويين غير مواطنين ولا يرقون إلى ما نادت به الثورة الفرنسية،[13] وبالتالي يحق غزوهم واستعمارهم ماداموا غير واعين وساقطين وجاهلين، وإذا كان الشاويون يتميزون بهذه الصفات والنعوت، فلماذا قاوموا الاستعمار الفرنسي الذي استعمر أرض الشاوية؟ لم يجب كونجو عن هذا السؤال، لأنه مستحيل التفكير في هذا السؤال في تلك الحقبة المتشبعة بالمواقف الإيديولوجية والاستعمارية التي تحجب الحقيقة،[14] ولقد تحولت هذه المواقف الإيديولوجية إلى أفعال كما ورد في الصفحة 50 من كتاب كونجو، إذ كلف الفرنسيون إبان بسطهم لنفوذهم على الدار

[11] جاء في المادة الأولى لإعلان حقوق الإنسان والمواطن الذي أصدرته الجمعية الوطنية الفرنسية في 26 غشت 1789: «يولد الناس ويعيشون أحرارا متساويين في الحقوق، ولا يمتاز بعضهم عن بعض إلا فيما يختص بالمصلحة العمومية».
أنظر: غوستاف لوبون. روح الثورات والثورة الفرنسية. ت عادل زعيتر. المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2012، ص 105.

[12] أحمد بن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ، ص49.

[13] في سنة 1905 تم فصل الدين عن الدولة في فرنسا وإقرار العلمانية التي أقرت بأن الدين قضية خاصة شخصية لا دخل للدولة فيها، إلا أن الدولة الفرنسية(على الرغم من علمانيتها) استعانت إبان غزوها للمغرب برجال الدين المسيحيين لشرعنة احتلالها للمغرب، بحيث رافقوا الحملة العسكرية الفرنسية كمساندين روحيين للجنود الفرنسيين ويقول كونجو في الصفحة 96: «صحيح أنه في عدة مناسبات تقدم الفرنسيسكان الإسبان لجنودنا خدمات في غاية التفاني، إلا أن معرفتهم المحدودة للغتنا، وكونهم أجانب، جعل الكهنوت الرعائي لا يكون مرتاحا إزاء البعثة العسكرية».

[14] يبني المستعمر شرعية وجوده على تبخيس الآخر ، وإضفاء البطولة والشجاعة على نفسه، فغداة احتلال الدار البيضاء سنة 1907م وصف كونجو قبائل الدار البيضاء والشاوية بالرعاع والسارقين والناهبين، بينما وصف الغزاة الفرنسيين بالشجاعة والبطولة، ونقرأ في الصفحتين 40 و41 : « وحينها تسارع الرعاع الذين كانوا ينتظرون قرب المدينة ليشرعوا في النهب وسرقة المتاجر والأبناك والمنازل (...) كان الفرنسيون يدافعون عن أنفسهم بشجاعة »، فهل من يغزو بلدا آخر يدافع عن نفسه فقط؟

البيضاء العرب واليهود بأعمال السخرة التي تمثلت في حمل الجثث على متن عربات، ثم نقلها نحو حفر واسعة، بينما صور كونجو في كتابه الفرنسيين بأنهم إنسانيون ورحماء يسعفون الجرحى من مقاومي الشاوية الذين شاركوا في المقاومة الرافضة لاحتلال الشاوية، وبالتالي: كيف يستقيم الاثنان؟ أعمال السخرة من جهة والإسعاف من جهة أخرى؟

ورغم مواقفه الإيديولوجية المتحاملة على مقاومي الشاوية، فإن كونجو يعترف بشجاعة الإنسان المذكوري، ويقول عن معركة برابح التي دارت رحاها في يومي 16 و17 من فبراير 1908م على الضفة اليسرى لوادي النفيفيخ:

«**بعد أن تجاوز الرتل الصغير سيدي بن سليمان، حيث قبائل ازيايدا، هوجم بشدة عند معبر "بير الرباح" على واد "انفيفيخ" من قبل قوات كثيفة، من امزاب والمداكرا**»، كونجو، 2018، 81).

ويتضح من خلال هذا القول أن كونجو يقر بصلابة الإنسان المذكوري خلال بداية القرن العشرين، إذ بمجرد ما استشعر الخطر الفرنسي القادم، حتى هب للمقاومة، وهو يعلم أن اجتياز وادي النفيفيخ هو اجتياز للحدود الطبيعية لقبيلة المذاكرة، ولذلك تحالفت هذه القبيلة مع امزاب لمباغتة الجيش الفرنسي القادم من مدينة بوزنيقة، والذي اجتاز بسلام ضريح بنسليمان إلى أن اعترضه مقاومو المذاكرة على مشارف وادي النفيفيخ، وقد نجم عن معركة بير الرباح تسعة قتلى من الجانب الفرنسي ورأسهم القائد بولو، والذي ستسمى مدينة بنسليمان باسمه خلال الفترة الاستعمارية. ما فتئ هنري كونجو على طول صفحات الكتاب يشيد ببسالة المذاكرة الذين لم يستسلموا أو يتراجعوا إلى الخلف رغم الهزائم والانكسارات التي طالت القبائل الأخرى، ويقول عنهم:

«**كانت قبيلة المداكرا لا تزال تناهض فرنسا**»، (كونجو، 2018، 108).

بمعنى أن القبيلة بقيت تقاوم الفرنسيين حتى الرمق الأخير ، ولم تذعن لإغراءاتهم ولانتصاراتهم على القبائل المجاورة مثل مديونة والزيايدة وأولاد حريز ، والأدهى من ذلك تعاونت المذاكرة مع قبائل أخرى خارج الشاوية مثل زيان وآيت أويراح التي وصلت إلى هضبة "سيدي اعسيلة" لمؤازرة المذاكرة في معركتهم ضد الفرنسيين، وفي هذا الإطار لم يتردد في تسمية مقاومي المذاكرة بالمعاندين:

«**قرر الجنرال أن يزحف على أكثر خصومنا معاندة وهم المداكرا**»، (كونجو، 2018، 74).

إن المذاكرة في نظر كونجو مجرد معاندين أي رافضين للاحتلال الفرنسي، ولذلك لم يتورعوا في مقاومته بكل الوسائل المتاحة والممكنة، وهنا يقول كونجو:

«**لم يمض إلا وقتا قصيرا حتى هوجمت المجموعة الفرنسية الصغيرة بحدة، من قبل تعزيزات قادمة من المذاكرا جلبتها أصوات المدافع**»، (كونجو، 2018،71).

لقد كانت قبيلة المذاكرة آخر المستسلمين وفي طليعة المدافعين عن أرض الشاوية بشكل خاص وأرض المغرب بشكل عام، بالنظر إلى المعارك التي شاركوا من تدارت، مرورا ببئر الرباح وواد عيطة ووصولا إلى سيدي اعسيلة ومكارطو وغيرها من المعارك، وهذا ما يبين حجم التضحية التي تحلى به هؤلاء المقاومون الذين ضحوا بأنفسهم من أجل الوطن، وعن تضحياتهم الجسيمة يسرد كونجو:

«ودخلت السريتان المنطقة الجبلية، المغطاة بالغابات من تراب المداكرا، قام المغاربة بمجهودات خارقة لوقف جنودنا. لكن رغم ضراوتهم، وصعوبات الأرض التي لم نر مثلها من قبل، استطاع جنودنا عبورواد "عطاش" ليتسلقوا على الساعة التاسعة هضبة "بريغيت"، التي كان المداكرا يظنونها غير قابلة للاختراق»، (كونجو، 2018، 110).

ويبدو من خلال هذا الحكي أن مقاومي المذاكرة تحصنوا بهضبة بريغيت قرب منابع وادي العطش، وقاوموا حتى النفس الأخير ، غير مكترثين بالمآل والمصير ، بحيث أن الدفاع عن الأرض والعرض والشرف لا يقدر بثمن، ولذلك بذلوا مجهودات خارقة حسب وصف هنري كونجو ، كما تحلوا بالضراوة أي بالشجاعة والشراسة، وساعدتهم في ذلك الطبيعة الغابوية والجبلية لمنطقة بريغيت التي تمثل واحدة من مرتفعات الهضبة الوسطى المنيعة.

وبالنظر إلى التفاوت في العدة والعتاد والرجال، استسلمت قبيلة المذاكرة، ونهبت ممتلكاتها، وحرقت محاصيلها وسلبت بهائمها بسبب مقاومتها العنيدة والقوية، وهذه المقاومة بقيت عالقة في التاريخ وحاضرة في الأذهان والوجدان.

خلاصة

يتبين من خلال ما سلف أن الكتابة الاستعمارية الفرنسية في بداية القرن العشرين لم تكن موضوعية في تعاطيها مع المجال والإنسان المغربيين، ولم تكن تنظر إليهما كغاية في ذاتهما، بل نظرت إليهما كوسيلة، وبالتالي فما تغنت به من شعارات المدنية والحضارة والتقدم والرخاء وغيرها من الشعارات، يتنافى مع تمثل الكتابة الاستعمارية للمجال والإنسان المغربيين، وإبان الغزو الفرنسي للشاوية سنة 1907م تم تمثل المجال على أنه عائق أمام التوغل الفرنسي بالشاوية، والحال أن خصوبة التربة وغنى المجال هو حث الفرنسيين على غزو المنطقة، وبخصوص الإنسان الشاوي فتم النظر إليه كواحد من الرعاع الجاهلين، غير أن المقاومة الباسلة لقبائل الشاوية وعلى رأسها قبيلة المذاكرة جعلت الكتابة الفرنسية تعترف بنبلهم وشجاعتهم في مواجهة الغزو الفرنسي.

لائحة المراجع

- أحجيج، حسن. الفهم في العلوم الإنسانية. مراكش: مؤسسات آفاق للدراسات والنشر والاتصال، 2022.

- أميلي حسن و سراج أحمد. فضالة أو عودة الذاكرة. المحمدية: جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مركز الدراسات والبحوث التاريخية والأثرية، 2000.
- بن مسكويه، أحمد. تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ.
- دوتي، إدمون. مراكش. ت عبد الرحيم حزل. الرباط/الدار البيضاء: دار مرسم، 2011.
- دو فوكو، شارل. التعرف على المغرب 1883.1884. ت المختار بلعربي. الدار البيضاء: دار الثقافة، 1999.
- عبد الرحمان، طه. الحق العربي في الاختلاف الفلسفي. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط1، 2012.
- فردي، نور الدين. (مساهمة) في الكتاب الجماعي: المذاكرة والتصدي الشعبي للاستعمار الفرنسي. الدار البيضاء: سلسلة دفاتر الشاوية، منشورات مؤسسة تامسنا للدراسات والأبحاث حول الشاوية، ط1، 2001.
- كاربخال، مارمول. إفريقيا، الجزء الثاني. ت محمد حجي . محمد زنيبر . محمد الأخضر . أحمد التوفيق . أحمد بنجلون. الرباط: دار نشر المعرفة، 1988.1989.
- كونجو، هنري. حوليات احتلال الشاوية. ت فقيهي راوي الصحراوي. الدار البيضاء: دار الفقيه، 2018.
- كيوم، ليون، أوغسطين. البربر المغاربة وتهدئة الأطلس المركزي 1912.1933. ت محمد العروصي. بني ملال: جامعة السلطان مولاي سليمان، 2016.
- لوبون، غوستاف. روح الثورات والثورة الفرنسية. ت عادل زعيتر. المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2012.
- منديب، عبد الغني. الدين والمجتمع: دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2006.
- موليراس، أوغست. المغرب المجهول (اكتشاف جبالة)، الجزء الثاني. ت عز الدين الخطابي. الحسيمة: دار تيفراز ن أريف. 2013 .
- موليراس، أوغست. المغرب المجهول (اكتشاف الريف)، الجزء الأول. ت عز الدين الخطابي. الحسيمة: دار تيفراز أريف. 2007.
- Mission scientifique du Maroc. Villes et Tribus Du Maroc : Casablanca et les CHÂOUÏA, Tome II. Paris : Ernest Leroux,1915.